

## القيمة الجمالية والعمران عند ابن خلدون

The esthetic value and urbanism at Ibn Khaldun  
La valeur esthétique et l'urbainisme chez Ibn khaldoun

بوجلال نادية \*

جامعة الجزائر 2، الجزائر

تاريخ النشر: 2018/07/01

تاريخ القبول: 2018/06/25

تاريخ الإرسال: 2018/06/25

## الملخص:

إننا نكتشف في نصوص ابن الرقة والدقة والملاحظات والتحليلات، فحسب ولكن العصرية في العديد من الميادين، و من بين المسائل التي تناولها ابن خلدون مسألة الجميل، الفن والجمال. يتميز ابن خلدون بين حياة البدو وحياة الحضرة، حياة خطيرة، حياة وحشية، وحياة رقيقة، متعالية تحمل سمة التقدم والرقي الحضاري مثل الوسائل وأتماط السلوك، التقنيات المختلفة ومتنوعة، والمعارف من كل جنس والأفكار والمعتقدات، والقيم والثقافة أو ما أسماه "الحضارة". والحضارة عند ابن خلدون هي ذلك النزوع إلى النشاطات النبيلة كالفنون والصنائع، ولكنه تتضمن جميع الحرف سواء كانت تقنية أو فنية ولكن كذاك بعض الفنون النبيلة كالطب والجمال والوراقة (الخط). هكذا يؤسس ابن خلدون لنظرية في الجمال عنوان الحضارة وسمة من سمات المدينة.

الكلمات المفتاحية: القيمة الجمالية؛ الحضارة؛ المدينة؛ ابن خلدون.

**Abstract :**

We discover in the text of Ibn khaldoun not only the sharpness and it's observations, but also it's modernity in numbrous domains, and among the multiple themes witch approaches ibn khaldoun, the beauty, the art and esthetics

Ibn khaldoun distinguishes between the life bedouine and the life cetadine, a life laborious, rough, gangrous and a sophisticated life, which carries the mark of a civilization progress such as the styles of behavior, the drivers and varied techniques, the knowledge in any kinds, opinions and values, the culture or good life witch names "hadara"

The civilization "hadara" for Ibn khaldoune is soft towards noble activities such as the art and the technical or artistic but are noble arts like the medecine esthetic beauty and the bookshop (writing)

Ibn khaldoun his theorie of art title of "civilization and city".

**Key words :** Beauty values; civilization; The City; Ibn khaldoune.

**Résumé**

On découvre dans les textes d'Ibn khaldoun non seulement la finesse de ses observations et de ses analyses, mais aussi son modernité dans de nombreux domaines, et parmi les multiples thèmes qui aborde ibn khaldoun, le beau, l'art et l'esthétique.

Ibn khaldoun distingue entre la vie bédouine et la vie citadine, une vie laborieuse, rude, dangereuse et une vie raffinée et supérieure, qui porte la marque d'un progrès civilisationnel tel que les usages, les modes de comportements, les techniques diverses et variées, les connaissances en tout genres, opinions, et les valeurs, et la culture ou le bien être qui le nomme " hadara".

La civilisation (hadara) pour ibn khaldoun c'est tendre vers des activités nobles. Tels que l'Art et les activités techniques mais des arts en général qui comprennent tout les métiers qu'ils soient technique ou artistique, mais il y a des arts nobles comme la médecine, la beauté esthétique et la librairie (l'écriture), c'est ainsi qu'Ibn khaldoun, forme sa théorie de l'art titre de la civilisation et la cité.

Mots clés : Valeur de Beaute ; Civilisation ; La Cite, Ibn Khaldoun

## المقدمة:

إن الفن قيمة إنسانية وبعد جمالي تنشده الحضارات في كل زمن وفي كل مكان، والحضارة الإسلامية شأنها شأن مثيلاتها لم تحمل الجمال كقيمة مهمة في حياة الإنسان فتعاملت معه من منطلق الإحساس به كمسألة نظرية متأصلة في أعماق النفس الإنسانية السوية التي تنجذب إلى الجمال وتنفر من القبيح .

لكن الجمال كتجربة إنسانية محضة تستهدف مشاركة الآخر في الأحاسيس والوجدانات محمولاً على صورة جمالية أو لغة إشارية لن يكون ذا قيمة ما لم يسند على ضوابط ترفعه إلى مستوى القيم الإنسانية الثابتة.

وأبن خلدون كغيره من الفلاسفة - وإن اعتبره البعض بعيداً عن الوسط الأدبي والفني - أجاب عن سؤال ماهية الجمال أولاً، وإلى جانب كونه شعوراً إنسانياً خاضعاً للتربية والتكوين وقابلاً للتعميم ليشمل الكون الرحب، وهو كذلك شعور بالتلذذ قائم على إدراك الملائم والمناسب في المزيّنات والمسموعات أو في الأشكال والأصوات ثانياً .

ومما يؤكد عليه أيضاً ابن خلدون ذلك الارتباط الوثيق بين الأنشطة الفنية ومحيطها السياسي والاجتماعي، ففن العمارة مثلاً ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى فهم معمق للمقولات الجمالية دائمة التطور تتدخل فيها الأوضاع الاقتصادية والإرادة البشرية والقوى الفاعلة في المجتمع أو الدور الأساسي في قيام ما أسماه بعلم العمران الحضاري في مواجهة البداوة والخشونة والتوحش.

إن ابن خلدون لا يتصور مدينة دون احتياجات فنية كالموسيقى والغناء والخط الجميل فكيف يفسر ويعلل قواعدها وضوابطها الجمالية؟ وإلى أي مدى يربطها بالحيثب الاقتصادي والاجتماعي؟

## العمران البشري المفهوم والدلالة:

استطاع ابن خلدون بعقله النفاذ، ونظريته الثاقبة أن يحول العمران الإنساني إلى علم واضح المعالم سواء من حيث الموضوع أو المنهج فوضع له أسساً واستوفى له مسائل وميزه عن غيره من العلوم و المعارف، يقول: "وكان هذا علم مستقل بنفسه. فأنه موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى . وهذا شأن كل علم وضعي كنان أو عقلي " (عبد الرحمن ابن خلدون، ص 43-45) فيعرف لفظ العمران قائلاً: أن العمران هو: "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات كما في طباعهم (البشر) من التعاون على المعاش" فيجعل من التعاون على اقتضاء الحاجات والتعاون على تلبيتها السبب الأول والمباشر للتساكن و العمران ليس في منطقة بعينها أو في بقعة جغرافية معينة إنما ينطبق على جميع مناطق الأرض بشيء من التفاوت والاختلاف والسبب في ذلك يرجع إلى "الفروق الفردية بين الناس: طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم وسلوكهم الاجتماعي، أو ما يرجع إلى اختلاف نمط الحياة وأسلوب العيش لدى الجماعات البشرية المنتشرة في القسم المعمور من الأرض" (عُجْد عبد الجابري، 2001، ص 143) وما تنطبق على المعمورة على الإقليم الواحد: وهي نفسها العوامل التي تشرح اختلاف أحواله -العمران- والإقليم الرابع هو الإقليم الأكمل والأعدل عمراناً سواء من حيث السكان الذين يتشكلون من الأعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً، وهم كذلك لأن عامل المناخ المعتدل أكثر تأثيراً عليهم في جميع ما استتبعه من أحوال، وهذا كذلك سينعكس على مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، فيبوتهم من الحجارة المنمقة بالصناعة ويستعملون الآلات والمواعين، ولديهم المعادن، ويتصرفون بالنقد في معاملاتهم التجارية يقول فيهم: "وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم ، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة.

ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية (عبد الرحمن بن خلدون، ص 85). أما أولئك الذين يقطنون الأقاليم البعيدة عن الاعتدال فيبوتهم من الطين والقصب ، ومأكلهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات كما يرى أنهم يبتعدون بأخلاقهم عن مبادئ الانسانية بمقدار ابتعادهم عن الاعتدال.

أما اختلاف العمران في شكله وأحواله على مستوى الإقليم الواحد وليكن الإقليم المعتدل فيعود إلى اختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب والجذب وما تفرضه هذه الطبيعة على الإنسان في تحصيل الغذاء والتعاون على كسب العيش، وإذا اختلفت أنماط التعاون ووسائل وطرق الحصول على العيش اختلفت معها أشكال هذا الاجتماع يقول: "إعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لركاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران" (ابن خلدون، ص91)

وهكذا تفرض الأرض الخصبة نمطا معيناً من العيش وشكلاً معيناً من الحياة الاجتماعية يختلف عن ذلك الذي تفرضه الأرض الجذباء حيث يقتصر فيه الأفراد على الضروري من الأقوات، يعتمدون على حيواناتهم التي ينتقلون بها من مكان إلى آخر طلباً للكفاية الماء، فهو أقرب إلى الترحال وعدم الاستقرار على خلاف سكان الأراضي الخصبة الذين هم إلى الاستقرار أميل لسهولة حصولهم على القوت وهكذا يصرفون الزائد من أعمالهم ونشاطهم في توسيع أحوال معاشهم وتحسينها، فيستكثرون من الملابس والتأنيق فيها، ويوسعون في بيوتهم ويختطون المدن والأمطار التحضر، وكلما زادت واتسعت أحوال الرفه زادت معها عادات الترفه والمبالغة فيها كالتأنيق في القوت واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة والتنوع فيها، واتخاذ القصور والمنازل والصروح والمعالات في البيوت، ويستجدون اللباس والفرش والآنية والماعون، ويمارسون في معاشهم الصنائع والتجارة. (ابن خلدون، ص ص 121-122)

وعليه نخلص أن هناك عامل أساسي يتحكم في اختلاف أحوال الناس الاجتماعية والشخصية من لون ومزاج، نتيجة اختلاف طرائقهم في كسب عيشهم، يتدرج العمران البشري من البسيط إلى المعقد، من سكان البادية إلى الحضر، "فقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمطار وأصل لها بما أن وجود المدن والأمطار من عوائد الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعيشة والله اعلم" (ابن خلدون، ص123) ولا يتوقف ابن خلدون في تحديد العلاقة بين البدو والحضر عند هذا الحد وإنما يضيف إلى ذلك التبادل الاقتصادي الذي ينشأ بينهما بحكم الضرورة، فالإنتاج الزراعي للبدو يتوقف على استعمال الآلات والأدوات. التي يقدمها سكان الحضر لتوفر الصنائع عندهم وهي من اختصاصها أصلاً، إضافة إلى أن أسواقهم هي المجال الذي يجد فيه البدوي قيمة لبضائعه نقداً أو مقايضة بالآلات فلا حداد ولا نجار ولا خياط يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلاحة وغيرها (عبد الرحمن بدوي، ص151). هذا بالنسبة للعامل الإقتصادي أما العامل السياسي فيتمثل في خضوع البدو لأهل المدن إذا كان فيهم ملك غالب، أو لمن له الزعامة والرئاسة إما طوعاً أو كرها يغالبون به بقية الأمصار.

يميز ابن خلدون بين بدو يعيشون في الصحاري والأراضي الجرداء بعيداً عن المدن لا يلاحقهم جند ولا تصلهم حماية، وبدو يسكنون التلال والسهول، يعيشون على فلاحة الأرض، يضطرون إلى الخضوع للسلطة الحاكمة بدفع الضرائب والمغارم، ويستدعون للتجنيد عند الضرورة ولذلك يشكلون مادة للعمران ولكن لا يشكلون مادة لملك كبير وإنشاء دولة.

أما في المدينة أو الحضر فالأعمال بها كثيرة تزيد على الحاج والضروري وكلما زادت مكاسب السكان أدت إلى الرفه والغنى الذي يقود معه الترف والحاجة إلى التأنيق في المسكن والملبس والمركب والآنية، وأساليب كسب العيش تختلف عن أساليب البدو يحصرها في ثلاث: التجارة والإمارة والصناعة.

التجارة: يقول عنها: "إعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيام كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش" (عبد الرحمن بدوي، ص322) فالتجارة هي ذلك ذلك النشاط الذي يقوم على طلب الربح في السلع باحتكارها إلى حين غلائها، أو بنقلها من مصر إلى آخر، والقائم بما لا بد أن يتصف بصفات معينة لصعوبة هذا النشاط كالجرأة على الخصومة، وشدة المماحمة، والإقدام على الحكام أو أن يكون له جاه يستند عليه يهيئه من أجله الباعة، ينصفه الحكام أمام معامليه، وإذا لم تتوفر له هذه الصفات فعليه تجنب التجارة لأنه سيعرض ماله للضياع ويصبح لقمة صائغة للباعة.

يربط ابن خلدون بين التجارة والجاه وإن كان هذا الأخير داخل على الناس في جميع أبواب المعاش " يتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه، فإن كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشيء عنه كذلك، وإن كان ضيقاً قليلاً فمثله" (ابن خلدون، ص 370). وقد

وصف ابن خلدون المجتمع الحضري الذي يعتمد على التجارة والمال في اقتصاده بقوله: "وكنا قد قدمنا أن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواقه وأسعار حاجاته، ثم تزيد المكوس غلاءً لأن كمال الحضارة إنما تكون في نهاية الدولة في استفحالها، وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم. والمكوس تعود على البياعات بالغلاء، لأن السوق والتجار كلهم يحتسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقونه، حتى في مؤونة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها فتعظم نفقات أهل الحضارة فتخرج من القصد إلى الإسراف ولا يجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسهم كلها في النفقات ويتتابعون في الإملاق والخصاصة، ويغلب عليهم الفقر ويقل المتسامون للبضائع فتكسد الأسواق وتفسد حال المدينة وداعية ذلك كله إفراط الحضارة والترف وهذه مفسدتها في المدينة على العموم في الأسواق والعمران" (ابن خلدون، ص 367). وهكذا تصبح السوق كوسط لاقتناء الثروات عنصرا من عناصر التركيبة الكلية للحضارة المترفة وعمالا من عوامل اختيارها وانحلالها (مجموعة من الأساتذة، 2004، ص ص 113-121).

-الإمارة: يعرف ابن خلدون الإمارة أو الجاه بأنه "القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة" (ابن خلدون، ص 362) متفاوت في المجتمع يتدرج من الأدنى إلى الأعلى أي إلى الملك الذي يحصل على المال بطريقتين إما بالطاعة أو الإكراه كتحصيل الضرائب والمغرم والجباية والمصادرات بأنواعها.

ومن هنا يجتمع المال والثروة والحضارة والتفنن في الترف في الطبقة الحاكمة التي تتسع أموالها بالجاه أكثر اتساعا بالمال، مما يزيد من غناها وعوائد الترف ومذاهبه، وتستحکم لديها الصنائع في سائر فنونها. فما هي الصناعة؟ وما علاقتها بالعمران والجمال.

- الصناعة: يقول ابن خلدون في بداية حديثه عنها: "إعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عمليا هو جسماني محسوس. والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشر أو عب لها وأكمل، لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أو عب وأتم من نقل الخبر والعلم. فالملكة الحاصلة عن الخبر على قدر جودة التعليم وملكة المتعلم في الصناعة وحصول ملكته" (ابن خلدون، ص 371).

والصناعة منها البسيط والمركب، بسيط مقامه الضروريات والمركبات هو الذي يكون للكماليات، البسيط يتقدم في التعليم على المركب لبساطته أولا ولاختصاصه بالضروري وتوفر أسباب ودواعي نقله ثانيا، فيكون سابقا في التعليم. والصناعة لا تحدث دفعة واحدة إنما تتراكم على مر العصور والأجيال، تخرج من القوة إلى الفعل إذا تحضرت الأمصار ودعت أمور الترف إلى استعمال الصنائع. وتنقسم الصنائع إلى ما يختص بأمر المعاش سواء كان ضروريا أو غير ضروري، وما يختص بالأفكار التي هي خاصة إنسانية من العلوم والسياسة، فمن الأولى الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها، ومن الثانية الوراقة، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثالها، ومن الثالثة الجندية وأمثالها. "فالمعيار اجتماعي يعكس حاجة المجتمع ودرجة تطوره فما دعت إليه حاجة المجتمع و كان ضروريا كان بسيطا وما عد مطلبها كماليا كان مركبا"

إن الناس همهم الأول قبل أن يستوفي العمران وتمتد المدينة الضروري من المعاش والاقتصار على تحصيل الأقوات من الخنطة وغيرها. وإذا لبوا حاجياتهم من الضروري عمدوا إلى الكمالات من المعاش، وخرجوا مما يميزهم عن الحيوانات، ذلك أن الغذاء مقدم على العلوم والصنائع البسيطة في العمران البدوي الذي لا يحتاج إلا البسيط الضروري من حدادة ونجارة وخياطة وحياكة وجزارة وإن وجدت فلا توجد كاملة ولا مستجادة وإنما توجد بمقدار الضرورة وهي ليست مقصودة لذاتها إنما هي وسائل لغيرها. يقول في التعريف: لقد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار لأن الأمور الضرورية في العمران ليست كلها موجودة لأهل البدو وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح وموادها معدومة ومعظم الصنائع فلا توجد لديهم في الكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره" (جورج لايبكا، 2008، ص 227)

أما في الحضرة أو المدن حيث يزخر العمران وطلبت الكمالات استجذبت الصنائع والتأنق فيها، وتزايدت صنائع أخرى دعت إليها عوائد الترف وأحواله من جزارة ودباغة وخرافة وصباغة وغيرها.

وإذا استبحر العمران وزاد هذا الحد استدعى وجود كثير من الكمالات والتأنيق فيها أيضا فتصبح من وجوه المعاش في المصر ووجه من أوجه الكسب ذات الفوائد الجمدة لما يدعو إليه الترف مثل الدهانة والحمامة والطبخ والهراسة وتعليم الغناء والرقص وقرع الطبول والوراقة وهي انتساخت الكتب وتجليدها وتصحيحها وهذه الصناعة نتيجة ترف فكري وصنائع أخرى في غاية الغرابة كتعليم الحداء والرقص والمشى على الخيوط في الهواء، ورفع الأثقال من الحيوان والحجارة (عبد الله شريط، 1984، ص ص 100-102). و هي نوع من الألعاب البهلوانية في زماننا هذا.

ويرى ابن خلدون أن هذه الصنائع تصبح عوائد للعمران ترسخ بالتكرار وطول الأمد أما نتائجها الأخلاقية والسلوكية فهي ليست موضوع بحثنا وإنما ما نبحت عنه هو الجمال الذي لا يمكن أن يكون العمران بعيدا عنه ولا يمكن تخيله يكون دون أن يكون جميلا. ما هو الجمال وكيف سيكون العمران. جميلا؟ عند ابن خلدون؟

ماهية الجمال: الجمال حكم مصدره إحساس طبيعي لدى الإنسان له ضوابط عامة وكلية متعددة تنأى به بعيدا عن الإحساس المادي الحيواني الذي غايته الإشباع الغريزي، والوعي بالجمال من حيث هو ظاهرة كلية متعددة الظهور والتجليات ومن حيث هو إشكالية تحتاج إلى التعليل وتستدعي التفسير والتبرير.

والجمال كتجربة إنسانية محضة تستهدف مشاركة الآخر في الأحاسيس والوجدانات محمولا على صورة جمالية أو لغة إشارية لن يكون ذا قيمة ما لم يسند إلى ضوابط ترفعه إلى مستوى القيم الإنسانية الثابتة.

فهل أجاب ابن خلدون عن سؤال الجمال؟ وهل تناول تلك الجوانب الفكرية النظرية في الفن الإسلامي التي لم تأخذ حظا وافرا من الاهتمام مقابل الجوانب الشكلية؟ ذلك أن ابن خلدون إذا تناول مسألة الجمال فسينتاولها من خلال الفن الإسلامي باعتباره تعبير الجميل عن حقائق الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود، وباعتباره المنجز الجمالي البصري والسمعي الذي أنتجه الفنان المسلم في جوانب العمارة والخط والزخرفة والشعر والموسيقى وغيرها.

وسيكون ناتج هذا الاهتمام عن ذهنية إسلامية ذات مرجعية تقوم في أساسها على مجموعة من المبادئ التي أقرها الإسلام. الجمال شعور إنساني خاضع للتربية والتعليم والتكوين قابل للتعليم ليشمل الكون الرحب، وهو كذلك شعور بالتلذذ قائم على إدراك الملائم والمناسب في المرئيات والمسموعات.

يقول: "وذلك أن اللذة كما تقرر في موضعه هي إدراك الملائم والمحسوس إنما تدرك منه كيفية، فإذا كانت مناسبة للمدرك وملائمة كانت ملذودة، وإذا كانت منافية له منافرة كانت مؤلمة. فالملائم من الملموسات. وفي الروائح ماناسب مزاج الروح القلبي البخاري لأنه المدرك وإليه تؤديه الحاسة. ولهذا كانت الرياحين والأزهار العطريات أحسن رائحة وأشد ملائمة للروح لغلبة الحرارة فيها التي هي مزاج الروح القلبي. وأما المرئيات والمسموعات فالملائم فيها تناسب الأوضاع في أشكالها وكيفياتها فهو أنسب عند النفس وأشد ملائمة لها" (ابن خلدون، ص 393).

وهكذا يكون الجمال هو الشعور بالتلذذ قائم على إدراك الملائم والمناسب من المحسوسات والطعوم والروائح والمرئيات والمسموعات فيقابل كفاءات كل حاسة بما تدركه من الأشياء فيحدث التلذذ، وكل حاسة تنشدها التناسب والتناغم والإنسجام في مدركاتها وكلما بلغت ذلك أحست باللذة وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك، كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة فتلذذ بإدراك ملامتها" (ابن خلدون، ص 393) والإتحاد بين المدرك والمدرك بحسب الملائمة والتلذذ الناجم عن ذلك كامتزاج أرواح العشاق ببعضهما البعض وهو اتحاد المبدأ بعد أن كان اتحاداً في الكينونة ولذلك أرقى مظاهر الجمال والحسن عند الإنسان تقوم في هذه العلاقة بين العاشق والمعشوق ففيها يتجسد الشعور بأقرب أنواع التناسب والتشابه والتطابق والتمازج الممكن لدى الإنسان، والبحث عن الحسن في المرئي والمسموع فطرة إنسانية محضة.

يقف ابن خلدون عند المسموع ليفيض في تفسير وتعليل قواعد وضوابط الجمال الموسيقي وجمال السمع عامة. وسيأتي التفصيل فيها لاحقاً:

- الفن والصناعة أية علاقة:

يصنف ابن خلدون الصنائع - كما أسلفنا- إلى ما هو بسيط مرتبط بالضرورة في المعاش وغير الضروري منه، ومنه ما يختص بالأفكار كالوراقة ولواحقها والغناء والشعر وهذه نتاج الفكر الذي يميز الإنسان عن بقية الحيوانات الأخرى، فلما يطلق ابن خلدون على هذه الأخيرة صنائع مما علاقتها بالفن و الجميل؟

لقد كانت كلمة صناعة هي المصطلح المتداول سواء في الحديث أو الكتابة عن الشعر والغناء والموسيقى والرسم والزخرفة والعمارة والتي أطلق عليها في عصرنا إسم "الفن"، وقد كانت كلمة فن art أو techné باليونانية لا تعني في العصور القديمة عند اليونان، أو في العصور الوسطى المدلول الإستيطقي (الجمالي) الذي لها اليوم، بل كانت تشمل كل مهارة تحقق فائدة عملية أو لذة جمالية وبهذا المعنى إنضوت فنون النحت والتصوير وفنون

النجارة والحداثة تحت مظلة واحدة. ولكن فلاسفة اليونان وضعوا الفنون الجميلة في أعلى السلم ونظروا إليها نظرة فوقية لأنها لا تعتمد على العمل اليدوي الذي كان من اختصاص العبيد، وهي أقرب إلى النظر الفلسفي، مصدرها الإلهام؟، ولها دور في عملية التربية وتنشئة المواطن الحر (أميرة حلمي مطر، 1989، ص ص 23-24).

أما ابن خلدون فلا يخرج عن هذا الإطار الذي رسمه الفيلسوف اليوناني فيستمر مرتبطا به في عدم التمييز بين الفن والتقنية (الصناعة) ويعتبرهما نشاطا واحدا سواء بالمعنى الإنتاجي للفظ أو بالمعنى الفني الجمالي ولكنها ليست في مستوى واحد يقول في الإشارة إلى أم الصنائع "إعلم أن الصنائع في النوع الإنساني كثيرة لكثرة الأعمال المتداولة في العمران فهي بحيث تشذ عن الحصر ولا يأخذها العد، إلا أن منها ما هو ضروري في العمران أو شريف بالموضع فنخصصها بالذكر ونترك ما سواها.

فأما الضروري، فالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة. وأما الشريفة بالموضع فكالتلويد والوراقة والغناء والطب..." (ابن خلدون،

ص ص 371-372)

إذن يميز ابن خلدون بين صنائع ضرورية لحياة الإنسان كالهواء والماء والطعام وصنائع تتجاوز الضروري إلى الكمالي تلك التي يحضر فيها عنصر الجمال لأنه يدرك بالحس ويترجم بالفكر وتتحول فيه الأحاسيس والعواطف إلى علاقات وعناصر جمالية تخاطب الوجدان وتدغدغ المشاعر وإذا كان عنصر المنفعة أساسي في الصنائع الضرورية هو ما يجعلها لا تتوخى الجمال بل تقصد الدقة والمهارة والإتقان وربما هذا ما جعله يعترف بوجود تفاوت بين الصنائع أو الفنون.

### أنواع الفنون والصنائع:

يميز ابن خلدون كما أشرنا سابقا بين فنون شريفة، وفنون وضعية ضرورية كالفلاحة والبناء والخياطة والنجارة والحياكة فالفلاحة صناعة تقوم على إثارة الأرض وزراعتها وعلاج النبات وتعهدته بالسقي إلى أن يبلغ غايته ثم حصاده واستخراج الحب، والقيام بجميع الأعمال من أجل الإستنتفاع بها، يختص بها أهل البدو ويجعلها الحضر.

أما صناعة البناء أو العمارة فيعرفها ابن خلدون بقوله: " هي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن، والمأوى للأبدان في المدن وذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد، كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها" (ابن خلدون، ص ص 376-377). وهي أول صنائع العمران الحضري ذلك أن البدو أفكارهم قاصرة عن إدراك قيمة البناء ويتخذون الغيران والكهوف مساكن مأوى لهم، وتختلف العمارة من مجتمع إلى آخر باختلاف أحوال الناس من غنى وفقير يقول: "فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه.... ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يتبغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه، واقتضاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة" (ابن خلدون، ص 377). ولا يتوقف ابن خلدون عند الحديث عن تقنيات البناء وآلياتها وموادها بل يضيف عليها ذلك الجانب الجمالي لهذه الصناعة فيقول: "ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التنميق والتزيين، كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من الجص يخمر بالماء ثم يرجع جسدا، وفيه بقية البلبل فيشكل على التناسب تحريما بمثقاب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورؤاء.

وربما عولي على الحيطان أيضا بقطع الرخام والآجر والخزف أو بالصدف أو السبج، يفصل أجزاء مجناسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرياض المنمنمة" (ابن خلدون، ص378). إنما هي جملة من المواصفات المطلوب تحقيقها داخل أي عمل في كفي يتصف بالجمال (مُجَّد نصره، 2001، ص170).

وصناعة النجارة كذلك من الصناعات الضرورية في العمران ومادتها الخشب الذي له منافع لأهل البدو والحضر على حد سواء، وهي صناعة قديمة شديدة الارتباط بالهندسة تتطور بتطور العمران فتتجاوز الضروري إلى الكمالي وأدخلت عليها قيم جمالية لم تكن موجودة قبلا يقول "ثم إذا عظمت الحضارة وجاء الترف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضروري في شيء، مثل التخطيط في الأبواب والكراسي، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرز يحكم بريها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدسائر فتبدو لرأي العين ملتحمة، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب..." (مُجَّد نصره، 2001 ص380).

الحياكة والخياطة صناعتان ضروريتان كذلك في العمران من احتياجات البشر من الرفه، فإذا كانت صناعة الحياكة هي "نسج الغزل حتى الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول والحاما في العرض لذلك النسيج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة" (مُجَّد نصره، 2001 ص381).

فإن الخياطة تفصيل المنسوجات بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تبييتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة" (مُجَّد نصره، 2001 ص384) وهاتان الصناعتان قديمتان مختلفتان من مكان إلى آخر. هذا بالنسبة للصناعات الضرورية أما الصنائع الشريفة بالموضع فمنها صناعة التوليد، وصناعة الطب، والخط والكتابة، وصناعة الوراقة وصناعة الغناء.

صناعة التوليد صناعة نسوية هدفها إخراج المولود الآدمي من بطن أمه أو من رحمها يرفق ومتابعته بعد الخروج، وهي صناعة مهمة جدا لأن بها يصبح بدن الإنسان بدن إنساني بالقوة وإذا انفصل صار بدنا إنسانيا بالفعل ولذلك هي صناعة ضرورية في العمران لأن النوع الإنساني لا يوجد ولا يتشخص إلا بها.

أما الطب فثمرته "حفظ الصحة للأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم" (مُجَّد نصره، 2001 ص381) ويؤكد ابن خلدون على أن أصل الأمراض الغذاء والحميات التي تقطع عملية تحليل الغذاء في المعدة أو الكبد.

ويرى أن وقوع الأمراض يكثر في الحضر والأمصار لكثرة المأكول وعدم الإقتصار على نوع واحد من الغذاء وعدم توقيتهم لتناوله، وخلط الأغذية وفساد الأهوية في الأمصار، وقلة ممارسة الرياضة أو فقدانها تماما ولذلك كثرت أمراضهم وزادت حاجتهم لصناعة الطب، وعلى العكس من ذلك أهل البدو الذين تنتفي عندهم الحاجة إلى الطبيب بانتفاء الأسباب المؤدية للمرض.

وفن الطب ضروري لأن الإنسان لكي يمارس وظيفته (العقلية) عليه أن يحافظ على صحته، وهو الفن الذي يستجيب لهذه الضرورة، فالصحة خير أساسي بدونها لا يستطيع الإنسان استعمال عقله (A.boukerche, 2007).

ومن الصنائع الشريفة الإنسانية أيضا الخط والكتابة فيعرفها الخط قائلًا: "وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس، فهو ثاني رتبة من الدلالة اللغوية، وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان" (ابن خلدون، ص386)

لما تساهم الكتابة في ترجمة الأفكار، ونقل العلوم والمعارف والإطلاع على كتب الأولين وأخبارهم، تكتسب عن طريق التعليم. والخط خاصية من خصائص العمران وتعبير عن طلب الكمالات فيه وجودته مرتبطة به وبتساعه وتطوره فعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغم في الكمالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة إذ هو من جملة الصنائع" (ابن خلدون، ص387)

وهناك صناعة أخرى شديدة الارتباط بصناعة الخط والكتابة وهي صناعة الوراقة وهي صناعة الوراقة وهي استنساخ الكتب وتجليدها اختصت بها الأمطار العظيمة. وكمؤرخ يقدم لنا ابن خلدون تاريخ الوراقة في الدولة الإسلامية حيث بدأت بالسجلات وكتب العلوم والرسائل السلطانية

والاقتطاعات والصكوك على الجلد أولاً ثم الكاغد. وتفاوتت هذه الصناعة من حيث الجودة بين المشرق والمغرب وإن آل إلى الفساد في كليهما.

وأخيراً يستوقفنا ابن خلدون عند قيمة جمالية أخرى وهي لذة يحدثها جمال المسموع أو ما أطلق عليه بصناعة الغناء فيعرفها قائلاً: "هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات" (ابن خلدون، ص 391) وهكذا يربط ابن خلدون بين الكلام الموزون الذي يلحن بتقطيع الأصوات عن طريق الموسيقى بنسب معلومة تحدث لذة عند السامع خاصة إذا أحسن تريبها. وقد يصاحب التلحين جملة من الآلات تقطع الأصوات إما بالقرع أو النفخ تحدث كذلك لذة عند سماعها كالشبابة والبوق والمزمار والقانون.

كيف تنشأ اللذة عن الغناء؟ اللذة باعتبارها إدراك للملائم والمحسوس فإن تناسب المدركات مع المدرك وتلاءمت كانت ملذوذة وإن تنافرت كانت مؤلمة، وقس على ذلك جميع الحواس، فحاسة الذوق إذا تلاءمت الطعوم مع مزاجها أحدثت لذة، والروائح إذا تناسبت مع الروح القلبي البخاري، والمرئيات إذا تناسبت وتلاءمت الأوضاع في أشكالها وكيفياتها للعين التي تدركها فذاك هو الجمال الذي تلذ الحاسة المدركة له عند إدراكه و عند الإتحاد به كإتحاد العاشق و المعشوق. أما الحسن في المسموع فيكون في تناسب الأصوات الموجب لها الحسن فيراعي إخراج الصوت بالتدرج وتناسبه في الأجزاء (1/2، 1/3، .....)، والتناسب إما بسيط فطري لا يستند إلى تعليم أو صناعة، وإما مركب يستند على علم الموسيقى. ثم يميز بين صناعة الغناء وقراءة القرآن وينتهي - وهو المالكي - إلى أن قراءة القرآن ليس مقامها التلذذ بإدراك حسن الصوت . والغناء كتعبير عن مرحلة متطورة من العمران سبقه فن الشعر عند العرب "يؤلفون في الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة، ويفصلون الكلام في تلك الأجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالإفادة لا ينعطف على الآخر يسمونه البيت، فتلائم الطبع بالتجزئة أولاً ثم بتناسب الأجزاء في المقاطع المبادئ، ثم تأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها" (ابن خلدون، ص 395). ولأجل هذا التناسب نال مرتبة الشرف حتى وإن كان التناسب في الموسيقى أشمل وأعم.

ويعرف ابن خلدون في موضع آخر فن الشعر بقوله: "هو الكلام الموزن المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية" (ابن خلدون، ص 519). وللشعر أسلوبه الخاص به الذي يختلف عن الأساليب الأخرى. فهو ما اجتمعت فيه الخصائص التالية : " هو كلام مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الأخير من كل قطعة من هذه القطاعات عندهم بيتاً. ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويًا وقافية. ويسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة. وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده. وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو تشبيب أو رثاء...." (ابن خلدون، ص 521) وإذا كان فن الشعر يعتمد على مجموعة من المقومات فإن معرفتها غير كافية لقرض الشعر وانتاج نص شعري، فمعرفة التقنيات العروضية والصور البلاغية بتقسيماتها وتعريفاتها وكذا معرفة الأساليب النحوية والتقنيات الأسلوبية واللغوية لا تخلق شاعراً جيداً. يقول: "ولا تقولن: أن معرفة قوانين البلاغة كافية لذلك لأننا نقول: إنما هي قواعد علمية قياسية تفيد جواز استعمال التراكيب على هيئتها الخاصة بالقياس، وهو قياس علمي صحيح مطرد، كما هو قياس القوانين الإعرابية" (ابن خلدون، ص 524). ولذلك وضع جملة من الشروط لإحكام صناعة الشعر وجودته وأولها حفظ شعر العرب حتى تنشأ ملكة ينسج على منوالها وخاصة شعر الفحول من شعراء الجاهلية وشعراء العصر العباسي وأساليبها وسماتها الجمالية، وضرورة نسيان ما حفظ من الشعر لأن ذلك يحقق شيئين متلازمين للمبدع وهما:

- ترسيخ فكرة المنوال الجيد

- واكتساب أسلوب خاص بعيد عن الأساليب الممكنة الأخرى.

إضافة إلى حسن اختيار اللحظة المناسبة التي تنتهي فيها النفس لقول الشعر، واختيار المكان المناسب لذلك، والتزام القافية ومراجعته بالتنقيح والنقد واجتناب المعقد من التراكيب وأن يسوى بين الألفاظ والمعاني واجتناب المبتذل والسوقي منها.

-علاقة الفنون بالعمران:

إذا كانت الحضارة عند ابن خلدون لا تخرج على أن تكون "أحوالا عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر" (ابن خلدون، ص 373).

ومن سماتها أنها "تزيد عوائد الترف ومذاهبه وتستحكم لديهم (الحضر) الصنائع في سائر فنونه" (ابن خلدون، ص 373). وبذلك يغدو عند ابن خلدون "التفنن في الترف واستجدادة أحواله" من مستحدثات جمالية فنية تجسدها الصنائع والفنون المختلفة في المدن والأمصار أكبر دليل على ذلك الترابط بين الصنائع والعمران، فالصنائع لا توجد في البداية بقدر ما توجد في المصدر تتسع باتساعه وتكثر وتقل بحسب درجة الرفه فيه.

إن الصنائع وخاصة الشريفة منها وإن كانت مؤشرا من مؤشرات الإشراف على النهاية لأن وجود هذه المستحدثات في مدينة ما، وفي نمط عيش مجتمع ما هو إعلان عن حلول الطور الذي يأذن بخراب المصر وهلاكه (ناجية الوريحي بوعلجية، 2008، ص ص 191-192). فإنها ضرورة وحتمية تعكس مدى تطور الأمصار واختلاف أحوالها عن أحوال البدو "وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنيق فيها حينئذ واستجدادة ما يطلب منها، بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة" فهي مؤشر على ما بلغت إليه حضارة ما من الحضارات، يقول: "ولهذا نجد في الأمصار التي كانت استبحرت في الحضارة لما تراجع عمراتها وتناقص فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار المستحدثه للعمران" (ابن خلدون، ص 372) ويضرب لنا مثلا بالأندلس حيث يقول: "فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أنصارها، كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وإقامة الولائم والأعراس وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده" (ابن خلدون، ص ص 372-373).

تتضح هذه العلاقة جلية واضحة عند حديثه عن الصنائع مبينا تلك العلاقة الطردية بينها وبين العمران فمن صناعة الطب مثلا يقول: "فكان وقوع الأمراض كثيرا في المدن والأمصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم إلى هذه الصناعة" وعن صناعة الخط والكتابة يقول: "وقد قدمنا أن هذا شأنها، وأنها تابعة للعمران، ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون، ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا أو قراءته غير نافذة. ونجد تعليم الخط في الأمصار الخارج عمراتها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصنعة فيها" (ابن خلدون، ص 387) كما كان في الدولة الإسلامية بعد ما فتحت الأمصار واحتاجت الدولة إلى الكتابة فاستعمل العرب الخط وطلبوا صناعته وتعلموه وتداولوه، وتطور تطورا كبيرا، وتراجع الحضارة "نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجعل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران" (ابن خلدون، ص 389)

والوراقة شأنها شأن الصنائع السابقة حيث لاقت الدواوين العلمية والسجلات العناية والرعاية في النسخ والتجليد والتصحيح بالرواية والضبط، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة، وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه، في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس، إذ هو كل من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق أسواق ذلك لديهما" (ابن خلدون، ص 390)

والشعر الذي كان مصدر لذة العربي عندما كان على حال البداوة سواء في الجاهلية أو بعد مجيء الإسلام مع غضارة الدين وشدته في ترك كل ما ليس بنافع في دين أو معاش، وبفتح الأمصار الممالك واختلاط الأجناس جاء الترف إلى بلاد المسلمين "وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ وافتراق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعا بالعيدين والطناير والمعازف والمزامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم" (ابن خلدون، ص 395).

ويختتم ابن خلدون بصناعة الغناء لأنها آخر صناعة يستحدثها الإنسان في العمران بعدما يستوفي الضروريات في المعاش وحتى الكماليات ومن الصنائع الشريفة، وهذه الصناعة ليس لها وظيفة باستثناء وظيفة الفراغ والفرح، وتكثر وتنتشر إذا اتسع العمران وزاد أما إذا اختل وتراجع فهي أولى الصنائع التي تنقطع منه يقول: "وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة الواضائف إلا وظيفة الفراغ والفرح، وهو أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله وتراجع" (ابن خلدون، ص 396).

## ابن خلدون وأسئلة الفن والجمال:

هل أجاب ابن خلدون عن أسئلة الفن والجمال عموماً أم أنه اقتصر على تحديد ماهية الجمال فقط؟ هل عدد المبادئ والأسس و المفاهيم المتعلقة بالماهية كالطبيعة الجمالية والخصائص والعناصر والمعايير والقيم الجمالية والتذوق الجمالي والإبداع والإلهام والصور الفنية؟ وهل يوقر لنا ابن خلدون كقطب من أقطاب الثقافة العربية الإسلامية إمكان إقامة جماليات معينة المفاهيم تضاف إلى الخبرة العربية الإسلامية؟ وأنماط التذوق الجمالي المحكوم بضوابط دينية خاصة؟ هل قدم لنا خطاباً جمالياً احتضن مقومات متخيل استقرت في ثناياه رموز أكثر من حضارة ومن فضاء ثقافي عبر عنها في نسق دلالي ولغوي خاص به؟

مما لا شك فيه أننا من خلال استقصائنا للجمالية الخلدونية عبر نظرية في العمران خلصنا إلى أن ابن خلدون لم يقصد عرض نظرية جمالية وفنية ولكننا لا نذهب مذهب شاكر لعبي في أن ابن خلدون لا يؤمن بالحاجات الجمالية وبمدينة لا احتياجات تشكيلية عميقة فيها، فهو يتحدث عن الموسيقى " بروعة الخلق الفني ولذته" ويصف تحريمات الأشكال المجسمة بأنها قطع الأرض المنمنمة" ويصف الخط الرفيع بـ " جمال الرونق وحسن الرواء" وأن هذه استجابة للجميل ولكنها ليست فكراً جمالياً واعياً. (شكر لعبي، 2010، ص190)

إن ابن خلدون وإن لم يقدم نظرية في الفن والجمال مستقلة عن القضايا والنظريات والمسائل الفكرية الأخرى خاصة التاريخ والحضارة والعمران البشري وأن ما كتبه في هذا المضمار جاء منتورا بين طيات كتابه خاصة المقدمة ولذلك فهذا النثر لم يأت اعتباراً أو عشوائياً أو اقتناصاً للفرص وإنما ما قدمه يرقى بالفعل إلى مستوى النظرية التي تفتك الإعراف بما بشرف.

ولعل أول مسألة في النظرية الجمالية الخلدونية ماهية الفن وخصوصيته الإنسانية حين يسطر حدوداً واضحة بين الإنسان والحيوان فالإنسان ليس حيواناً طبيعياً يتوقف عند إشباع رغبات جسده فحسب، إنه أكثر من ذلك لأنه يملك عقلاً يحدد جوهره ويرتقى به من إشباع الضروري إلى العيش الجيد *le bien etre* في المدينة أو الحضر أين يمارس النشاطات النبيلة والشريفة أو الفنون المختلفة ليشتبع حاجيات العقل والروح ، يقول: " إن الصنائع (الفنون) والعلوم إنما هي للإنسان من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضرورة على العلوم والصنائع" (ابن خلدون، ص386) (شكر لعبي، 2010، ص375).

أما عن مسألة الإبداع الفني وعلاقة بالموهبة فتتضح من خلال ما طرحه بالنسبة لتعلم الصنائع، فإن آمن ابن خلدون بتعلم الصنائع وضرورة وجود معلم لذلك وفإنه يؤمن بميل الإنسان لصناعة دون أخرى أو تملك صناعيتين في آن واحد ولذلك يقول: " إن الملكات صفات النفس وألوان فلا تزدحم دفعة، ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداداً لحصولها. فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة أضعف" (شكر لعبي، 2010، ص375).

كما صنف ابن خلدون الفنون أو الصنائع، وقد سبقت الإشارة إليها- بحسب قربها من العقل والابتعاد عن الحس وكان منها الوضيع (الضروري) والشريف كالغناء والموسيقى والشعر وحدد الغاية منها وهي غاية جمالية محضة حيث قال عنها: " وهذه الصناعة آخر ما يحصل في العمران من الصنائع لأنها كمالية في غير وظيفة من الوظائف إلا وظيفة الفراغ والفرح" (شكر لعبي، 2010، ص396).

أما عن المعاشة الجمالية باعتبارها من أبرز مسائل الفلسفة الجمالية وأكثرها أهمية يقول: " وإذا ما سواك إذا نظرتة وتأملتة رأيت بيتك وبيته اتحاداً في البداية يشهد لك به اتحادكما في الكون.... بل تروم النفس حينئذ للخروج عن الوهم إلى الحقيقي التي هي اتحاد المبدأ والكون، ولما كان أنسب الأشياء إلى الإنسان وأقربها إلى أن يدرك الكمال في تناسب موضوعها هو شكله الإنساني كان إدراكه للجمال الحسن في تخاطيطه وأصواته من المدارك التي هي أقرب إلى فطرته. فيلهج كل إنسان بالحسن من المرئي أو المسموع بمقتضى الفطرة" (شكر لعبي، 2010، ص393).

وغاية ما تتركه هذه الآثار الفنية الممثلة في الصنائع أو الفنون اللذة هي إدراك الملائم والحسوس فإذا كانت مناسبة وملائمة كانت ملذذة كانت طعوماً أو ملموسات أو روائح أو مسموع، سواء كان غناء أو موسيقى وفي هذه تحدث بلغة العارف بعلم الموسيقى والأصوات نرتبها رياضياً بنسب يعرفها أصحاب العلم. وتحدث عن الآلات الموسيقية وكيفية استعمالها والمفاضلة بينها.

وفرض عليه الخط العربي نفسه كفن من الفنون الإبداعية فتحدث عن جماليات هذا الخط وأنواعه وتأرجح هذه الجماليات لواقع العمران وأحواله.

وعليه يمكن القول أن ابن خلدون لم يكن مؤرخا فحسب ولا عالم اجتماع ومؤسس لعلم العمران بل مؤسس لعلم الجمال العمراني إن صح التعبير فعمرائه زاخر بالجماليات والقيم الجمالية جزء من مدينته تتحرك في فلكه وتتفاعل مع يقية القيم الأخرى خاصة الدينية منها تنصاع لضوابطها وإن تمرت اختل التوازن وحكمت عليها نفسها بالفناء.

### الخاتمة:

لقد كان ابن خلدون مشعلا من المشاعل التي أضاءت ذلك التوهج الأخير في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية وقبسا من نور حضارتها الإنسانية، خاض في العديد من المسائل والقضايا وأسس لمشروع فكري حضاري دعائمه قيما دينية وأخلاقية وجمالية فنية. فابن خلدون لا يتصور مدينة دون موسيقى وغناء وخط جميل وعمارة ووراقة، دون صنائع تعكس رفاهة المجتمع ومستواه العمراني والحضاري وتحضه له وتفوقها قلة وكثرة تختل باختلاله وتنتعش بانتعاشه.

لقد ابدع ابن خلدون في مجال تصنيف الفنون وابدع في مجال الموسيقى والغناء عندما أخضعها جميعا لخصوصية المجتمع العربي الإسلامي وارتباطها ببعضها البعض داخل هذا النسيج المتفرد الذي يؤدي إلى ظهور صنائع تعبر عن تطوره وتقدمه وتلبي حاجاته التي يعبر عنها بالطلب المتزايد سواء كان ضروريا أو كماليا. وأدرك تلك الجدلية القائمة بين العمران والصنائع فهي تتقن وتزدهر بازدهار العمران، ويخضعها جميعا لمبادئ وحتميات تسمو به إلى مصاف الفلاسفة العظام.

### مراجع البحث:

- A.boukerche. (2007), , la conception de la ville chez ibn khaldoune, Algerie.wordkness.com
- أميرة حلمي مطر. (1989)، مقدمة في علم الجمال وفلسفة الفن، دار المعارف، القاهرة، ط 1 .
- شكر لعيبي. (2010)، الفن والحرف الفنية لدى ابن خلدون، المدينة الخلدونية الفاضلة، مكتبة مدبولي، ط 1.
- عبد الرحمن ابن خلدون. (د.ت)، المقدمة ، ضبط وشرح وتقديم مُجد الإسكندراني ، دار الكتاب العربي بيروت، لبنان .
- عبد الله شريط. (1984)، نصوص مختارة من فلسفة ابن خلدون في الاجتماع والسياسة والثقافة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر .
- عن ابن خلدون، جورج لايبكا. (2008)، السياسة والدين عند ابن خلدون، تعريب موسى وهي وشرفي الدويهي، منشورات ENEP دار الفراجي
- مجموعة من الأساتذة. (2004)، الفكر الاجتماعي الخلدوني، المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية، سلسلة كتب المستقبل العربي(31)، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1،
- مُجد عابد الجابري. (2001)، فكر ابن خلدون-العصبية والدولة : معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ، مركز دراسات الوحدة العربية : بيروت، لبنان، ط 7 .
- مُجد نصره. (2001)، جماليات الكتابة العربية - العمارة الإسلامية، رسالة دكتوراه، جامعة حلوان، القاهرة.
- ناجية الوريحي بوعلجية. (2008) ، حفريات في الخطاب الخلدوني- الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية، دار الجنوب للنشر، تونس.